البناء.. وإطلالتان في سورة الضحى

«١»

في سورة «الضحى» وهي سورة واضحة المعاني، مشرقة العبارات والنبرات - والقرآن كله هدىً ونور - إطلالة رفيقة على ساحة من ساحات البناء، وتنمية القدرة الذاتية لمن يناط به معالجة الواقع هدماً للباطل، وما يكون بسبيله ومن دواعيه، وبناءٌ لكيان الحق في الفرد والمجتمع، تخطيطاً وتبليغاً ومعاناةً، ناهيك عن حسن الأسوة واستقامة التصرف والسلوك لمن يتبعونه على طريق الحق، ويتعاونون معه على مشاق الرحلة المثقلة بالمتاعب والمصاعب، ولمن يأتون من بعده.

كما أن فيها إطلالة رفيقة أخرى على ساحة إنسانية لا تنفصم عن مواقع البناء، وتتعلق أول ما تتعلق بإرشاد الجماعة إلى القيمة الكبرى للإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم، وأن ما قد يطرأ على الفرد ـ ذكراً كان أو أنثى ـ لا حيلة له فيه، لا يُقصيه عن وظيفته الاجتماعية وأثره في بناء المجتمع بالقدر الذي يستطيع في ظل شريعة الله والتآخي بين المؤمنين، وأن العقيدة التي أشرق بها عقله، وخالطت بشاشتها قلبه، أعطته ـ بإذن الله ـ وجوده الإنساني الكريم، الأمر الذي يتيح له الإسهام في تحقيق العبودية الخالصة لله في الأرض ، وذلك منتهى حرية الإنسان وكرامته.

أما الإطلالة الأولى: فنجدها في قول الله جل ثناؤه: ﴿**وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨**﴾ [**الضحى**:١-٨].

إن رسولنا الكريم صلى الله وسلم وبارك عليه قد ابتعث برسالة خاتمة لرسالات السماء؛ من مهامها ـ على طريق الهداية ـ بناء الفرد والأسرة والجماعةـ بل والأمة ـ بناءً سداه ولحمته ضوابط تلك الهداية؛ وذلك من خلال مجتمع صالح يقوم على عقيدة التوحيد: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» وتحكمه شِرعة الإسلام.

وكان ذلك جزءاً مما أنيط به ﷺ من تبليغ ما أوحي إليه وبيانه؛ على صعيد التعليم والعمل والتربية بالقول والأسوة، والإعداد المتكامل؛ الأمر الذي يحيل المبادىء في حياة الناس ـ سلماً كانت الحال أو حرباً ـ إلى قوة فاعلة مؤثرة تتحرك بالوقائع والتنفيذ، وهي في الوقت نفسه قوة ناطقة بأحقية ما كانت ترجمة له، على صعيد الواقع في علاقة الناس بربهم، وعلاقتهم بعضهم ببعض.

وكانت المرحلة الأولى لذلك: مرحلة العهد المكي الذي كان مطلوباً من الدعوة فيه أن تسلك الدروب الشائكة، وتتجاوز العقبات الصعاب، في مناخ جاهلي غارق بظلام الوثنية ورواسب الأعراف المجافية للفكر المستقيم، والتقليد الأعمى الذي ينحِّي العقل السليم عن التفكير والتدبير، وكل ما يتصل بذلك من تلك الموروثات الجاهلية المحميَّة بدفاع الذائدين عنها بصلابة وإصرار عقيمين. أرأيت إلى قوله تعالى خطاباً للنبي ﷺ وهو على مشارف هذه المرحلة في العهد المكي: ﴿**يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٢﴾ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴿٥﴾**﴾ سورة المزمل:[١-٥] قال الحسن وقتادة ﴿**قَوْلاً ثَقِيلاً**﴾ أي: العملَ به.

والحق أن الآيات الآنفة الذكر من سورة الضحى أعطتنا معلماً قرآنياً أضاء الطريق لروّاد العمل على إحكام البناء المنشود؛ إذ لا بد لمن يناط به كبار الأمور، وعظائم المهمات: أن يحسَّ بأنه يقف على الأرض الصلبة فيما يطلب منه ويعاينه، وأن يكون في غاية الطمأنينة النفسية والقلبية بالرسالة التي وُكل إليه إبلاغها الناس، وتقويم سلوكهم من خلالها، وتطويعهم لأحكامها وأخلاقها.

وهذا بعض ما كان من عطاء تلك الآيات؛ حيث انتصر اللّه لنبيه ﷺ في وقت الشدة؛ فأقسم أنه لم يتركه ولم يبغضه:﴿**وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾**﴾ وأن الخير أمامه كثير، وحسن العاقبة خاتمة الطريق وهي خير من الدنيا وما فيها ﴿**وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ ﴿٤﴾**﴾.

ثم ذكّره اللّه ببعض ما أنعم عليه من نعم وفيرة، ومن أنعم بالأولى قادر على الإنعام بالثانية. ولنستنر بذكر الآيات مجتمعة مشرقة بالمعاني المشار إليها، وهي بعض ما تحمل من الهداية والخير.. ﴿**وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾**﴾. روى البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وغيرهم عن جندب البجليِّ «أن النبي ﷺ اشتكى ـ مرض ـ فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأتت امرأة فقالت: يا محمد، ما أرى شيطانك إلا قد تركك. فأنزل **اللّه﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ...﴾** الآيات.

هكذا أقسم اللّه ـ وله أن يقسم بما شاء من خلقه وبمن شاء ـ بالضحى والليل إذا سجى: أنه لم يترك نبيه محمداً ﷺ ولا أبغضه.

ثم بين له أن الدار الآخرة خير له من الأولى؛ ولهذا كان ﷺ أزهد الناس في الدنيا، وأعظمهم لها اطِّراحاً كما هو معلوم بالضرورة من سيرته العطرة. روى الإمام أحمد بسنده عن عبداللّه بن مسعود رضي الله عنه قال: اضطجع رسول اللّه ﷺ على حصير، فأثر في جنبه، فلما استيقظ جعلت أمسح جنبه وقلت: يا رسول اللّه، ألا آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئاً؟ فقال رسول اللّه ﷺ : «**مالي وللدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب ظل تحت شجرة ثم راح وتركها**» ورواه الترمذي وابن ماجه من حديث المسعودي وقال الترمذي: حسن صحيح.

ويتعاظم العطاء، فيقول تعالى:﴿**وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ**﴾ لقد كان عطاء الدنيا بما كان من انتصار الدعوة والتمكين لها في الأرض، وبناء الدولة، ودخول الناس في دين اللّه أفواجاً، ولسوف يعطيه ـ وهو الكريم الوهّاب ـ في الآخرة حتى يرضيَه في أمته وفيما أعدَّ له من الكرامة والمقام المحمود.

وبعد: فقد كان هذا الذي نسعد بالحديث عنه من الخير والعطاء: مما كشف عنه المعلم القرآني في أوائل البعثة حيث الخطوة الأولى على طريق الدعوة والتبليغ في ذلك المناخ الجاهلي: شديد الوطأة على التوحيد والداعين إليه.

وكم في ذلك من التـأييـد الإلهي الذي يبـعث في النفس قـدرة على السـيـر والمتابعة، مهما كانت العقبات، ومحاولات الصرف عن رسالة الخير الهادية البانية.

كما أن في ذلك ـ وهو خطاب رب العزة الرحيم الرحمن ـ تسلية عما يصيب النبي ﷺ ـ وهو يقوم بالبلاغ، ومن ورائه أصحابه وتابعوهم بإحسان عبر التاريخ ـ من لأواء الطريق، على ساحة الصراع بين الحق والباطل.

ولكم نكون على الجادة وعياً للرسالة، وإحاطة بالواقع، حين نحسن الاحتكام إلى ثوابت الهدي المحمدي وضوابط الدين الحنيف ونحن نرسم خطوات التنمية والبناء، ونعمل على إعداد من تناط بهم مسؤولية ذلك، مهما اتسعت الساحات وتنوعت الميادين.

إن الأمة إذا وفقت لفعل ذلك حيزت لها طاقة هائلة متمثلة في هؤلاء الرواد الذين ينتفعون حق الانتفاع بسيرة النبي ﷺ وجهاده الفذِّ على طريق الدعوة إلى اللّه، وتأييد اللّه له وعونه في وقت الشدة، ويخوضون ساحات البناء والإعداد عن رضىً وطمأنينة، واثقين بنصر اللّه، معتزين بالراية التي يرفعونها فوق الهامات في سبيل اللّه.

أجل: محمد ﷺ رسول يوحى إليه، وشدُّ أزرِه ومواساتُه في الساعات العصيبات والانتصار له ـ على المدى ـ كل أولئك كان بعون اللّه، واللّه تبارك وتعالى أعلم حيث يجعل رسالته، فلم يتوان رسول اللّه ولا ضعف عن قيام بواجب.

وكم تمنح الثقة بعون اللّه وتأييده، من القدرة على تخطي المصاعب، والاستعلاء على المعوقات.

وصلاة اللّه وأزكى تسليماته على الأسوة الحسنة للمؤمنين سيدنا محمدبن عبداللّه الذي خاطبه ربه وهو على عتبة المعارك الفاصلة في تاريخ البشرية بقوله: ﴿**وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾**﴾.

سورة الضحى... والبناء

«٢»

ما سبق من القول في سورة «الضحى» كان بعضاً من وجوه الهداية في فواتح تلك السورة المباركة؛ حيث وقعْنا على واحد من معالم الكتاب الكريم، يضيء الطريق لمن همُّهم بناء كيان الأمة في طاقاتها البشرية المعنوية والمادية، وتنمية قدرتها ـ وهي صاحبة الرسالة الخاتمة ـ على أداء رسالتها التي تقدم المنهج الكامل للحياة، وتسعد الإنسان أن لو التزم بهذا المنهج ـ في دنياه وأخراه.

لقد رأينا الآيات التي كانت شداً لأزر النبي ﷺ، ومواساة له في أوقات الشدة وعصيب الساعات ﴿ **مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ** ﴿٣﴾ **وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ** ﴿٤﴾ **وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ** ﴿٥﴾ ﴾.

وتحملنا الآيات الأخرى إلى تذكير بالنعم؛ فكيف يتركه أو يبغضه من أنعم عليه وأكرمه، ثم إن الذي أفاض عليه هذه النعم هو جلَّ شأنه الذي يعده ـ ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ** ﴾ [آل عمران: ٩] ـ بالعطاء الذي يعز تصوره، وإنه لعطاءُ الكريم الذي لا تنفد خزائنه ولا تنقصها النفقة ﴿ **وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ** ﴿٥﴾ ﴾.

وكان هذا التذكير المحبَّب الجميل بقوله تعالى خطاباً لنبيه ﷺ: ﴿ **أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ** ﴿٦﴾ **وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ** ﴿٧﴾ **وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ** ﴿٨﴾ ﴾.

أجل لقد توفي أبوه عبداللّه وهو حملٌ في بطن أمه، ثم توفيت أمه آمنة بنت وهب وله من العمر ست سنين، ثم كان صلوات اللّه وسلامه عليه في كفالة جده عبدالمطلب، إلى أن توفي وله من العمر ثمان سنين، فكفله عمه أبو طالب، ثم لم يزل أبو طالب يحوطه وينصره ويرفع من قدره ويوقره، ويدفع عنه العاديات من هنا وهناك، ويكف عنه أذى قومه بعد أن ابتعثه اللّه على رأس الأربعين من

عمره، وظل الأمر كذلك حيث تكلؤه ﷺ عناية اللّه إلى أن توفي أبو طالب قبل الهجرة بقليل، وسمي العام الذي توفي هو والسيدة خديجة رضي اللّه عنها فيه: «عام الحزن».

والحق أن إيواء رسول اللّه من اليتم بفضل اللّه وعونه كان في المرحلة الأولى، وكذلك في المرحلة الثانية حين أقدم عليه سفهاء قريش وجهّالُهم بمزيد من الأذى ومناهضة الدعوة والفتنة عن الدين بعد وفاة أبي طالب وخديجة رضي اللّه عنها، فاختار اللّه له الهجرة من بين أظهرهم إلى المدينة بلد الأنصار من الأوس والخزرج، ليجد هناك الأرض الصالحة للبذر الطيب المبارك المنتج. وتفجرت ينابيع الخير وتفتحت أكمام البذل والوفاء.

ولقد كان رسول اللّه ﷺ ـ واللّه أعلم حيث يجعل رسالته ـ بعيداً عن موبقات قومه بحصافة عقله ويتطلع إلى الهداية بنور قلبه، ويتحنث في غار حراء ويتحرى. فأخرجه اللّه مما كان فيه إلى الهداية الخالصة: ﴿**وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ**﴾ فهذا معنى الضلال الذي كان فيه عليه الصلاة والسلام. كما في قوله تعالى في سورة الشورى: ﴿ **وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾** ﴾.

ومما منّ اللّه به عليه: أنه كان فقيراً ذا عَيْلة فأغناه اللّه عمن سواه بفضله وعونه، وذلك بما هيأ له من الأسباب، وسلك به السبيل الكريمة في كسب الرزق﴿**وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ** ﴾.

والواقع أن الغنى أمر نسبي، وقد جمع اللّه لنبيه ﷺ الغنى بعد العيلة وغنى النفس الذي هو الغنى الحقيقي؛ كما بيّن ذلك هو عليه الصلاة والسلام. روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللّه ﷺ قال: «**ليس الغنى عن كثرة العَرَض ولكن الغنى غنى النفس** ».

ومهما يكن من أمر: فإن هذه القضايا الثلاث التي أشرق بها النص القرآني على هذه الصورة الندية في خطاب رب العالمين لحبيبه المصطفى عليه الصلاة والسلام: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ . ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ﴾ . ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ﴾ . كانت من أبرز عناصر الإعداد النفسي الشيِّق العميق في حياة النبي ﷺ ، وهو يحمل رسالة الخير الغنية كلَّ الغنى بعوامل البناء الأصيل للفرد والمجتمع والنماء الطبيعي المتكامل على الصعيدين الروحي والمادي للبشرية قاطبة، حتى يوم النشور. وذلك في نور الكلمة الطيبة «**لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه**».

ألم تر إليها ـ أعني تلك القضايا الأم ـ كيف قدّمت لنا بنية الفرد إيواءً بعد يتم، وهدايةً خالصة بعد تحرٍ وتحنث، وغنىً بعد عيلة. كما أنك واجد فيها ما يمكن أن تدعوه علاقة الفرد بالمجتمع؛ لأن النقلة في كل واحدة من الحالات الثلاث الأُول وثيقة الصلة بالجماعة ومكان الفرد فيها، خصوصاً إذا لاحظنا سلطان الجاهلية بأعرافها في المجتمع، وما يقابل ذلك من تمخض يعكس التطلّع ـ ولو بالخفاء وعلى قلة ـ إلى شيء جديد.

ولو نظر الناقد البصير نظرة واعية في أي لون من ألوان هديه عليه الصلاة والسلام ـ وهو يقيم البناء الأسوة الأمثل، ويرفع قواعد دولة الإسلام ـ على مستوى الإنسان المسلم، والأسرة المسلمة والجماعة المسلمة، لرأى كأن هذا الرسول الكريم على تخصص دقيق في كل جانب من جوانب البناء على حِدة، مع ملاحظة ما يتطلبه التكامل ـ على محور الهداية ـ بين جانب وآخر.

ولكن لا بدع؛ فإنه الإنسان المكرَّم الذي اصطفاه اللّه للرسالة الخاتمة للناس كافةً، وأعدَّه من مختلف الوجوه لها، وهو ﷺ ـ وقد ابتعثه اللّه على رأس الأربعين ـ لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

ولعلي ـ بعد هذه الرحلة العجلى ـ لا أبعد النجعة إذا جنحت إلى أن تلكم الآيات من سورة الضحى: ينبغي أن تحملنا ـ وهذا من الإيمان ـ على المزيد من التبصرة في هدي رسولنا المجتبى عليه الصلاة والسلام، وسيرته العطرة التي هي الترجمان العملي لهذا الهدي الميمون.

فقد أغنانا اللّه برسالته الربانية بعد عيلة، وهدانا بعد عماية وضلال، وأخرجنا بها من الظلمات إلى النور. وما نعانيه من حب الدنيا وكراهية الموت، والاستخذاء أمام أعداء اللّه وقد تفاقم حقدهم وحرصهم على الغلَب في شتى الميادين: لا يقتحم معاقله إلا تأسٍ صادق، واعتداد واع بهديه عليه الصلاة والسلام، وهو المصطفى الذي صنعه اللّه على عينه، وأكرم عباده بما شاء من عمق تكوينه وإعداده لرسالة الخير التي تبني معالم الخير، وتنمي في الأمة خصائص الوجود الذاتي، الأمر الذي يسعف ـ بعد عون اللّه وفضله ـ في نفض غبار الاستخذاء والتقليد الأعمى عن العواتق، ويعيد للأمة استقلالها في صنع القرار المناسب لمكانها تحت الشمس، وأداء رسالتها من جديد في العالمين.

وعناية اللّه معنا ـ إن نحن صدقناه ـ كما كانت مع نبينا الكريم صلوات اللّه وسلامه عليه.

والمطلوب إقبال جادٌّ على الانتفاع بالهدي الرباني في الكتاب والسنة وسيرة إمام الهداة وما تحمل من وقائع.

* * *

obeikandi.com

مرة أخرى... مع سورة الضحى والبناء

«٣»

مع الآيات الفواتح المشرقة من سورة «الضحى» والنبرات المؤثرة فيها، والمقاطع التي تجعل الألفاظ بجرسها وعذوبتها وجمال موقعها تخالط القلب، وتدخل أعماق النفس بلا حجاب.

ومع الهداية النورانية من تلكم الآيات الجوامع قطعنا رحلة قصيرة سعدنا من خلالها بالوقوف على ما آذنت به من عظيم محبة اللّه تعالى ووافر إنعامه على حبيبه المصطفى عليه الصلاة والسلام. وكان من لذيذ الخطاب المعجز ذلك النداءُ العلوي المقترن بكاف الخطاب. الفيَّاض بالرقة والود، والبدءُ بالقسم توكيداً لمكانة رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم وما يحظى به من القرب من مولاه الكريم المنان.

وفي أعقاب ذلك جاءت الإطلالة الثانية التي جرى الإلماح إليها من قبل، والتي تبدو إطلالة على ساحة إنسانية متسعة الأرجاء في المجتمع، تفسح المجال، ولا تدع أن تجعله رحباً لكل أولئك الذين قُدِّر لهم أن يحملوا آثار مصاب أو نكبة؛ فلا يحول ـ على صعيد الشعور الذاتي والعطاء عند الآخرين ما يحملون آثاره من مصاب أو ابتلاء ـ دونهم ودون جعلهم يحسُّون أنهم ـ فعلاً ـ جزء مكرَّم في بناء هذا المجتمع لحماً ودماً، يتمتعون بكل ما يجب لهم من حقوق، ويندفعون راضين مطمئنين ـ بقدر الطاقة المتوافرة لديهم ـ إلى الإسهام الفعَّال في تحقيق القدرة البانية للمجتمع وجوداً واستمراراً، والكفيلة ـ بإذن اللّه ـ أن يكون له النمو النافع المتوازن على كل صعيد.

والواقع أن الإسلام ـ كما تدل نصوصه وواقعه التطبيقي ـ له مقاييسه الخاصة الهادية في تحديد من هو المنتج ومن هو المستهلك؟!

فالفرد المبتلى في المجتمع: حين يضمن له هذا المجتمع المسلم قدراً كافياً من

الحياة الكريمة، وما به يحسُّ إحساساً طبيعياً صادقاً بوجوده الإنساني بين إخوانه في العقيدة، وأن مصابَه أو تخلُّفَه اللاإرادي لم يمنعه حقاً، ولم ينزل به عن مستوى الكرامة الإنسانية...

هذا الفرد المعنيُّ بالحديث يكون عنواناً على أن الإسلام ـ في مثل هذه الحال ـ قد اعتبره وأمثاله قيمةً منتجةً في المجتمع؛ لأن المجتمع في نظر هذا الدين ليس قطعاً مادية بحتةً يُركم بعضها على بعض؛ فمن قدر ـ في إطار هذا المفهوم ـ على الحركة فهو المنتج، ومن لم يقدر فهو المستهلك؛ ولكنه مادةٌ وروح، وأخوة ومشاعر، وود وتعاون في ظل الأخوة الإيمانية التي تمليها عقيدة التوحيد، تلك التي تعطي مزيداً من الأهمية لإنسانية الإنسان كما خلقه الله، وتقرر أن المؤمنين إخوة كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** ﴾ وكما جاء في الحديث الذي أخرجه أحمد ومسلم وغيرهما من رواية النعمان بن بشير رضي الله عنه : «**مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر**» وأن المال مال الله، والناس مستخلفون فيه، قال تعالى: ﴿**وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ** ﴾ [النور:٣٣] وقال سبحانه: ﴿ **وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ**﴾ [الحديد٧] .

هذا: والذي جرى الإلماح إليه آنفاً من تلك الإطلالة جاء في قول الله جل ثناؤه خطاباً للنبي ﷺ: ﴿ **فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ** ﴿٩﴾ **وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ** ﴿١٠﴾ **وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ** ﴿١١﴾ ﴾ .

لقد كانت هذه الوصية الربانية الكريمة متسقة كامل الاتساق ـ و الله أعلم ـ مع النعم التي ذكّره الله بها في قوله سبحانه: ﴿ **أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ** ﴿٦﴾ **وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ** ﴿٧﴾ **وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ** ﴿٨﴾ ﴾.

وإذا كان الأمر كذلك ﴿ **فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ** ﴿٩﴾ **وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ** ﴿١٠﴾ **وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ** ﴿١١﴾﴾ لقد كنت يتيماً فآواك الله: فلا تقهر اليتيم، وكنت عائلاً فأغناك الله: فلا تنهر السائل. واذكر دائماً أنه هو المنعم المتفضل الذي أنعم عليك بخالص الهداية؛ وعلى هذا: فحدِّث بنعمة ربك معلناً شكرانك له جل شأنه.

إن كل فرد من أفراد المجتمع المسلم ـ كما أسلفت ـ ثروة وعطاء، وإنما يتحقق ذلك في الجميع بأن يشعر المصاب مع التربية والإعداد ـ أنه ليس مخلوقاً نزل به مصابه عن درجة إخوانه في المجتمع الذي يعيش فيه. والمصيبةُ ـ في أحد وجهيها ـ قد تكون من نعم اللّه الحكيم الخبير.

والآن: أن يكون سيدُ اليتامى رسول اللّه ﷺ على الصورة التي أوضحها المعلم القرآني، يخاطَب بهذا التوجيه الرباني الكريم: ضياءٌ على طريق أمتنا في تحديد القيم على صعيد الأفراد والمجتمع الذي ينضوون تحت رايته، وتوجيهٌ إلى أن عنوان السلامة في المجتمع ببناه المتعددة أن يكون قادراً على وضع الأمور مواضعها في تنسيق بين الوسيلة والغاية، وترتيب للأولويات، وإفادة من كل الطاقات المتوافرة لدى أبنائه، وإيذان بأن الإسلام ليس من المقاييس المادية البحتة بسبيل..

فبناء الإنسان على العقيدة الراسخة ومكارم الأخلاق من ودٍّ وإيثار وتعاون على البر والتقوى: لا يقل أهميةً عن بناء الطاقة المادية والاقتصادية إن لم يكن أهم، وتنمية المشاعر التي يصنعها الإيمان والأخلاق ـ كيما تنعكس على السلوك وتعمل عملها في إحكام التنشئة للمجتمع المتكافل المتعاون المتراحم ـ لا تقل بل قد تكون أكثر أهمية من تنمية القدرة المادية الرقمية وكفى، وإن كان الكل مطلوباً لعمارة الأرض وتحقيق العبودية للّه فيها.

وقد أخذ بناة الحضارة المادية بالجانب المادي الرقمي بعيداً عن العقيدة ومحاسن الأخلاق، فلم يملكوا أن يحولوا دون تسخير العلم لهدم الإنسان في كثير من الأحيان، ولتحقيق السلطان والغطرسة على الآخرين، ناهيك عما تعاني الشعوب من القلق وبعد الإنسان عن راحة القلب وطمأنينة النفس..

فعلوا هذا فذاقوا وبال أمرهم ـ وإن كانوا متفوقين قوةً وغطرسةً ـ وما يزال العالم في كثير من بقاعه أسير تلك المعاناة من ذلك الوبال، والخير كل الخير في منهج الإسلام، إنساني النزعة، شامل المنهج للدنيا والآخرة جميعاً.

* * *

obeikandl.com

obeikandl.com

معالم البناء.. والبيان النبوي

«١»

بيان النبي ﷺ للقرآن كما ائتمنه اللّه عليه ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: ٤٤] لم يكن بياناً تحاصره الكلمات بعيداً عن عملية البناء الكبرى، بناء الإنسان وبناء المجتمع امتداداً إلى بناء الأمة بكاملها.

كما أنه لم يكن في معزل عن ملاحظة طاقات الإنسان وما يكمن فيها من استعداد للنماء ومضاعفة العطاء. ولا في منأى عن مخالطة الحياة بسهلها وحزنها فيما يحدد من المطالب والقضايا والمشكلات بتنمية قدرة الجماعة على مواجهة ذلك كله كيما يستقيم البناء ويتعاظم سليماً معافى في كل ميدان من الميادين على تكامل في النظرة لا تهمل الدنيا لحساب الآخرة، ولا تستغرق الدنيا بإهمال الآخرة ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ** ﴿٧٧﴾﴾[القصص:٧٧] .

في ضوء ذلك كله نرى في حديث النبي ﷺ حول قوله تعالى:﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ**﴾ بيان المربي الذي يسهر على بناء إنسان العقيدة، ويمسك بعقله وقلبه ونفسه بزمام المجتمع ليقدمه للدنيا بناء متكاملاً هو المثل في صنيعة البناء من جميع جوانبه الفكرية والتشريعية والأخلاقية كما أرادت معالم القرآن الكريم.

ففي الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عنه يقول عليه الصلاة والسلام: «**الخيل لثلاثة، لرجل أجر، ولرجل سِتر، وعلى رجل وزر، فأما الذي هي له أجر فرجل ربطها في سبيل اللّه، فأطال طيلها في مرج أو روضة، فما أصابت في طِيَلها ذلك في المرج أو الروضة كانت له حسنات...**» إلى أن يقول: «**ورجل ربطها تغنياً وتعففاً** ـ وفي رواية: **تكرماً أو تجملاً** ـ **ولم ينس حق اللّه في رقابها ولا ظهورها فهي له ستر، ورجل ربطها فخراً ورياء ونواء لأهل الإسلام: فهي على ذلك وزر**» الحديث رواه الشيخان وأحمد والترمذي وغيرهم.

والذي يدل على الصورة المتكاملة للبناء في توجيه النبي ﷺ أنه سئل بعد هذا البيان عن الخيل، وكيف أن كل شيء يتعلق بها له وزنه عند اللّه على سلم الأجر أو الوزر... سئل عليه الصلاة والسلام ـ كما جاء في الحديث السابق ـ عن الحُمُر فقال: «**ما أنزل اللّه فيها شيئاً إلا هذه الآية الفاذَّة الجامعة**»،﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾**﴾[الزلزلة: ٧ – ٨].

إنها يد النبوة البانية، والبيان الذي ما بعده بيان لواحد من معالم القرآن الكريم، يوضح أن معالم الكتاب لا تدع أن تبني المجتمع بتكامل لا يهمل ولا يغالي، كما تبني الإنسان بتكامل وتوازن وفق ما هدى إليه الحكيم الخبير.

* * *

obeikandl.com

البنية الاجتماعية في المعالم.. والبيان النبوي

«٢»

في متابعة لطاقة نيرة من البيان النبوي لقوله تعالى: ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨** ﴾ نجد الرسول عليه الصلاة والسلام يفسح للآية ميدان البنية الاجتماعية، وتحكيم سلطان الخلق الإسلامي في التعامل بين الناس، الأمر الذي يفيض على المجتمع روح الود والتعاون، ويضفي عليه طابع التضامن والإخاء.

ففي الحديث الصحيح يقول عليه الصلاة والسلام ـ كما روى أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ: «**لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط**». رواه مسلم وأحمد والبيهقي وغيرهم، وفي رواية لمسلم: «**لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق**».

صلى اللّه وسلم على رسول اللّه: حين ننظر إلى بنية المجتمعات في بلاد الإسلام اليوم: نجد أن انحسار هذه الروح التي أراد رسول اللّه أن تكون سمة بارزة من سمات المجتمع المسلم، يسهم ـ إلى حد بعيد ـ فيما يرى من التفكك والجفوة والخضوع لقيم المادة ومقاييسها.

وحين يتطلع المصلحون إلى البناء وإعادة المجتمع إلى ما كان عليه تماسكاً واندفاعاً جماعياً إلى الخير لا مندوحة لهم عن النظرة الجادة إلى كل القيم التي روعيت في عملية البناء الأولى، وما الذي كان صنيع محمد بن عبداللّه صلوات اللّه وسلامه عليه. وكل من استنَّ بسنته في ميادين الإصلاح، وإنماء عوامل التماسك في المجتمع وكل ما من شأنه دفعه إلى السوية اللائقة برسالة أمتنا في البناء والنماء.

ولقد كان الإنسان دائماً في حسبان الرسول الكريم عند تصنيف الاهتمامات في حقول البناء، وتنمية القدرة البشرية في ظل عقيدة التوحيد التي كان لزاماً أن تواجه بأبنائها كل قوى الشر والوثنية في الأرض.

وأنت واجد من صور هذا الاهتمام في إعداد المسلم لهذه المهمة ما روى الإمام أحمد من أن نبي الهدى صلوات اللّه وسلامه عليه أتاه صعصعة بن معاوية عم الفرزدق، فقرأ عليه ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾** ﴾ ولكن ماذا كان من صعصعة؟ لقد قال بعد أن سمع ما سمع: (حسبي لا أبالي أن لا أسمع غيرها) وأخرجه النسائي في «الكبرى» والطبراني في «الكبير» وابن الأثير في «أسد الغابة» وغيرهم.

هكذا ـ ومع الاهتمام بالبناء ـ كان حسن الاختيار عند إلقاء البذرة في تربة صالحة للإنبات.

إن جيلاً تتربى منطلقاته في مثل هذه المحاضن من كتاب اللّه وبيانه من حديث رسول اللّه: هو الجيل المؤهل لأن يقود ركب البناة من جديد، ويكشف عن تلكم الطاقات المهدرة في الأمة ويضعها موضعها حيث الذاتية والعطاء وتنمية الفاعلية على أوسع مدى. والثمرات الطيبة الخيِّرة لذلك مضمونة بإذن اللّه!!

* * *

openkanadi.com

البيان النبوي.. والشمول كما تدل المعالم

«٣»

لقد كان رسول اللّه في بيانه ـ وهو يلج الحياة من كل ميادينها وأبوابها ليوجهها وجهة البناء الإنساني ـ يشهد على التاريخ في مقدار استقامة أبنائه وصانعيه على الطريقة، حين تعهد إليهم الأمة بتعبيد المسالك وتأتمنهم على الريادة.

وفي صفحات قريبات رأينا من بيانه ﷺ لواحد من معالم الكتاب العزيز في سورة «إذا زلزلت»، ما زادنا يقيناً على يقين بأن النبي الكريم كان يعمل جاهداً على أن تكون المفهومات القرآنية ضياء القلوب والعقول، ومحور بناء الحياة وإمداد جوانبها بكل ما يغنيها وينميها ويجعلها قنطرة سليمة للآخرة.

ولقد كان ذلك بما تبعث تلك المفهومات في نفس الإنسان المسلم من الإحساس الصادق بأن أيّ جهد يبذله وأي نشاط يقوم به من الخير هو في ميزانه عند اللّه.. وفي المقابل لا بد أن يكون على يقظة تامة تنأى عن اجتراح الشر في أي عمل يعمله أو نشاط يأتيه، لما أن المسؤولية تلاحقه حتى على ما كان مثقال ذرة من ذاك العمل أو النشاط ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨** ﴾.

وهذا الإعلان الخالد في المعلم القرآني قد شدَّ إنسان العقيدة إلى أن يكون متفتح البصيرة، مستيقظ الحسّ عند كدحه وعمله، وذلك ما أثمر أفضل الثمرات وأعطى أكرم النتائج بمفهوم إنساني شامل على المستويات الفكرية والاقتصادية والاجتماعية حتى وصل ذلك إلى رحمة الحيوان.. فالحيوان الأعجم غير المؤذي ينبغي أن لا يضام في ظل مجتمع لا يعرف إلا البناء الصالح وتنمية الإمكانات الخيرة التي تعود على الفرد والمجتمع بالخير في الدين والدنيا، وكان من الترغيب في ذلك ما حدّث به ﷺ عن واقعة جرت فيمن كان قبلنا أشرقت برحمة الحيوان، فشكر اللّه لمن رحم ذاك الحيوان فغفر له.

فـقـد روى الـبـخـاري ومـسلم أن رسـو ل اللّه ﷺ قـال: «**بينمـا رجل يمشي بطريق اشـتـد عليـه العطش، فـوجـد بئـراً فنزل فيـهـا، فـشـرب، ثم خـرج، فإذا كلب يـلـهث يأكل الثـرى من العطش، فقال الرجل: لقـد بلـغ هذا الكلب من العطش مـثل الذي كان قـد بلغ مني، فنزل البـئـر فمـلأ خـفـه مـاءً، ثم أمـسكه بفـيـه، حـتى رقي، فسقى الكلب فشكراللّه له فغفر له**».

صـحـيح أن الحـديث عـمـدة في باب الرحـمـة، ولكن الرحـمـة هذه صـورة من صـور المجتـمـع الفـاضل عند المسلمين ـ أن لو اسـتـقـامـوا على هدي الكتـاب والسنة ـ لأن ذلك يعني سـلامـة التـصـور وسـلامـة البنـاء، واسـتـنفـاد الطاقات على أسـاس من الثـقـة بما عنداللّه، ومن وضـع الخلق الكريم، وضـعـاً يحكم تصـرفـات الفـرد والجمـاعـة لا مع الإنسـان فـحـسب، بل يتـجـاوز ذلك إلى مـخلوقـات اللّه الأخـرى وإنهـا لعـبـرة نرجـو أن توقظ الغـافلين عن حقائق هذا الدين.

* * *

obeikandl.com

البيان النبوي.. في ظل المعلم القرآني

«٤»

كثيراً ما يضيع العمل الذي يتسم بالخيرية والصلاح بين شخصين اثنين:

أحدهما ـ إنسان مستهتر ساقه هواه إلى ساحة الغفلة، وسوّل له شيطانه الانحراف، فأصبح هو في جانب، والعمل البنَّاء الذي يعود عليه وعلى مجتمعه بالنفع والرقي في جانب آخر، بل إن هذا الصنف من الناس معوَل هدّام في جسم المجتمع والأمة.

أما الثاني ـ فإنسان يريد الخير، ولكنه يغفل عن أن البناء كلٌّ متكامل، وأن حاجة المجتمع في بعض الأحيان إلى جزئية لا يعبأ بها من الجزئيات: قد تكون من نوع حاجته إلى واحدة من الكليات، وأن الأيدي كلها إذا تعاونت وأسهمت، وأحسَّ كل فرد بمسؤولية عن دفع عجلة المجتمع في طريق النهوض والقوة. فذلك عنوان الفهم الصحيح لطبيعة البناء، وأن تنمية القدرة البشرية والمادية في المجتمع، تقتضي عدم الاستهانة بأي عمل مهما كان شأنه؛ لأن النماء يلد النماء، والعكس بالعكس.

والحق أن هذا بعض من عطاء المعلم القرآني في قوله تعالى: ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾** ﴾.

فالاستهانة بالقليل من العمل الخيِّر تسلم إلى الخسارة والضياع، والاستهانة بالقليل من الشر: تحمل على الإقدام عليه، وتفتح أبواباً من الأذى العارم والعياذ باللّه. ومن هنا تبدو عظمة التعبير بمثقال الذرة للخير والشر.

وحسبنا أن نذكِّر هنا بصورة من صور البيان النبوي لهذا المعلم الكريم، تلك الصورة التي تشعِر بأن كل الطاقات والإمكانات لابد أن توجه إلى المزيد من العطاء كيما تحيط بمتطلبات البناء من جميع الأوجه، وتحول دون المجتمع ودون أن تناله أسباب الأذى والهدم.

obeikandi.com

روى مـسلم عـن أبي هـريرة رَضِوَاللَّهُعَنهُعن النـبي ﷺ قـال: «**لقـد رأيت رجـلاً يتـقلب في الجنة في شجـرة قطعـها من ظهـر الطـريق كانت تؤذي المسلمين**» **وفي رواية له:** «**مـر رجل بغـصن شـجـرة على ظهـر طريـق فـقـال: واللّه لأنحـيَنَّ هذا عن المسلمين لا يؤذيهم، فأدخل الجنة**».

ترى أي نتائج تصل إليها الأمة لو وظفت هذا التوجيه النبوي بموضوعية على طريقها في البناء والسلوك وأخذ دوره في منهج الحياة.

وأخيراً.. لعل من سمات الوعي أن نرى أن رسولنا ﷺ ـ وهو يبين بهذا التوجيه المتميز ما أنزل اللّه إلى الناس في كتابه الكريم ـ كان يمارس بنفسه وبمن معه من المؤمنين مهمة البناء الفريدة في التاريخ، وإنها للأسوة الحسنة المباركة. اللَّهم اجعلنا في طاعة رسولك عليه الصلاة والسلام التي هي من طاعتك يا رب العالمين!!

* * *

obeikandl.com

مقولة البر.. على طريق البناء

علاقة آية البر بالكلمة الطيبة

« ١ »

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ٧٧١].

كانت نُقلةً عظيمةً على ساحة البناء والإنماء تلك التي يراها الناظر المتأمل في آية البر هذه من سورة البقرة. إذ بينما يدور الحديث في المجتمع عن تحويل القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام تطلع علينا الآية الكريمة بنفي قاطع لمقولة أن البر هو تولية الوجوه دون أمر اللّه إلى جهة من الجهات مشرقاً كانت أو مغرباً، ثم ببيان جلي ـ في أعقاب ذلك لحقيقة البر ـ كما سلف القول في مناسبة خلت.

ومن خلال هذا البيان وقفنا المعلم القرآني على أن بناء الإنسان بفكره وثقافته وتصوراته، وبناء المجتمع في ميادينه الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية من ذلك بحسبان.

فكلمة البر ليست لعقة على اللسان يتندّر بها أولئك الغافلون أو المتغافلون.. ولن يدعها القرآن أن تكون مدخلاً للعبث الكافر تمارسه طائفة من أهل الكتاب وخصوصاً اليهود.

فالبر ـ وهو أرومة الخير الجامعة ـ: إيمان باللّه واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين؛ وما أعظم أن يبنى الإنسان على هذا الإيمان الذي يهبه الاستقرار النفسيَّ، ويحمله على استقامة الخلق عند التعامل مع الآخرين، ويدفع به إلى ميادين العمل والجهاد، واثقاً مطمئناً مستنير العقل والقلب، ويجعل منه أكرم قيمة على ساحة البناء وتنمية مقومات الوجود الذاتي للمجتمع والأمة.

والبر ـ مع كونه بناءً للإنسان ـ بناءٌ للمجتمع على التعاون والتكافل بحوافز من العقيدة وابتغاء مرضاة اللّه عز وجل ﴿**وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ**﴾.

تلك هي واقعية الإسلامُ ﴿**وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ**﴾ إن الإنسان لحب الخير ـ وهو المال ـ لشديد، ولكن الإيمان يرقى بالمسلم إلى حيث لا تحول غريزة حب المال دونه ودون معاونة إخوانه من ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين ومن هم بحاجة إلى تحرير رقابهم من العبودية.

كل ذلك إسهاماً في إنشاء المجتمع المتماسك القوي، الذي لا تعوزه الأخوة المثلى التي تحقق مقتضيات الإيمان بالتعاون المجدي، وتنهض به ليكون المجتمع الأمثل اقتصاداً واجتماعاً، ووعياً لمستلزمات الواجب على صعيد البناء الذي لا بد له من تضافر الأيدي والعقول وكل الكفايات في سمو أخلاقي عند السلوك وممارسة شؤون الحياة.

وهذه الواقعية التي نشير إليها تعني حكمة اللّه في تكليف الإنسان، وأنه خوطب بهذا التكليف بوصفه إنساناً خلق ـ وبين جنبيه مع الفطرة التي ولد عليها ـ كثير من الغرائز، ومنها غريزة حب المال التي تحفز إلى العمل والإنتاج.

وهنا يأتي سمو العقيدة في جعل الإنسان يتطلع إلى ما هو أغنى وأغلى ﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا (٩)**﴾[الإنسان ٨-٩].

وفي ضوء ذلك جاء البيان النبوي يثبت هذه الحقيقة العظيمة على طريق البناء فقال ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة: «**أفضل الصدقة أن تصدَّق وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر**» ولما كانت طبيعة البناء تقتضي البدء من الخلية الأولى، فقد جاءت الآية على ذوي القربى أولاً، ثم ثنت بالآخرين، وقد ثبت في الحديث قوله عليه الصلاة والسلام: «**الصدقة على المساكين صدقة، وعلى ذوي الرحم ثنتان: صدقة وصلة، فهم أولى الناس بك وببرك وإعطائك**» أخرجه من رواية سلمان ابن عامر: أحمد والنسائي والبيهقي وغيرهم وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

obeikandi.com

صورة أخرى من صور البر... والبناء

«٢»

البر: هذه الكلمة الجامعة التي لا يخفى انعكاسُها على بنية الفرد والمجتمع، تتنقل بنا من خلال الآية الكريمة (آية البر) في سورة البقرة من بيان أن من البر إيتاء المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب: إلى أن من البر أيضاً إقامة الصلاة وإيتاءَ الزكاة، فالعمل لا بد أن يكون قرينَ الإيمان، وإلا كانت دعوى الإيمان: دعوى بلا دليل.

وجاء التعبير القرآني على غاية التناسب مع قوله تعالى: ﴿وَآتَى الْمَالَ﴾ فقال تعالى: ﴿وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾.

وهذا ما يعطي الوجاهة لما ذهب إليه كثير من المفسرين من تأويل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾. الآية. بأنه: ولكنَّ البِرَّ برُّ من آمن.

وعلى هذا: فالبرُّ برُّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، وليس ذلك فحسب، بل وآتى المال على حبِّه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب، وأقام الصلاة وآتى الزكاة. وإقامة الصلاة: إتمام أفعالها في أوقاتها بركوعها وسجودها وطمأنينتها وخشوعها وكل أحكامها على الوجه الشرعي المطلوب.

وإذا كانت الصلاة صلةً بين العبد وربه، فما أعظم ما تثمره من استقامة وخيرية في السلوك، تجعل من الفرد اللبنة الصالحة في المجتمع الفاضل المنشود!.

أما عن إيتاء الزكاة: فالراجح ـ واللّه أعلم ـ أن يكون المراد بالزكاة الفريضة التي هي ركن من أركان الإسلام، وإن كان بعض المفسرين قد ذهب إلى أن المراد زكاة النفس وتخليصها من الأخلاق الدنيئة المرذولة كقوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠] . غير أن الكثرة الكاثرة من المواطن التي اقترن فيها إيتاء الزكاة بإقامة الصلاة في القرآن الكريم، وما يوحي به جو الآية من هذه الساحة المباركة لمعنى البر، وهي ساحة تشمل ـ فيما تشمل ـ سمات من بناء الإنسان وبناء المجتمع: كل هذا يعطي أن المقصود بالزكاة هنا: الفريضة، وهي الركن الثالث من أركان الإسلام، وأهم ركيزة من ركائز الاستقرار الاقتصادي والاجتماعي في المجتمع المسلم؛ لما أنها تؤدَّى وهي حق في المال، لا استعلاء فيها ولا استكبار!!

وعلى هذا تكون الآية قد جاءت على ذكر النافلة والتطوع في التكافل الاجتماعي والاقتصادي والبر والصلة بدءاً من أولي القربى، ثم جاءت على ذكر الفريضة وهي الزكاة.

ومن حكمة ذلك ـ واللّه أعلم ـ أن يشعر المسلم ـ وهو يسهم في عملية البناء على ساحة المال والتعاون – أن في المال حقاً سوى الزكاة، وأن تثمير المال وتحريكه يؤول بالخير على اقتصاد الفرد والمجتمع ويكون في ذلك مرضاة اللّه تعالى، إذا التزمت الحقوق، وسما صاحب المال بنظرته إلى ما وراء الحيازة الفردية والأنانية في ذلك.

وقد روى ابن أبي حاتم عن فاطمة بنت قيس أنها سألت رسول اللّه ﷺ : أفي المال حق سوى الزكاة؟ قالت: فتلا علي: ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ﴾ الآية. وفي رواية لابن مردويه عن فاطمة أيضاً قالت: قال رسول اللّه ﷺ : «**في المال حق سوى الزكاة**» ثم قرأ: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَفِي الرِّقَابِ﴾ وفي حديث قادم نسعد إن شاء اللّه بقبسات أخرى من عطاء الآية على طريق البناء والنماء. وللّه عاقبة الأمور.

* * *

آية البر... والكلمة الطيبة في الأخلاق.. والبناء

«٣»

أرأيت أولئك البررة الذين تناط بهم عملية البناء الكبرى كما أرادتها رسالة الإسلام، العملية التي تتناول النفوس، وتتناول المجتمع بكل ميادينه ومقومات وجوده الحقيقي.. أرأيتهم.. إنهم المؤمنون الصادقون. وفي الوقت نفسه هم الذين يستعلون على الإمساك والشح، فيبذلون ويؤتون المال ـ على حبه ـ من يستحقه في نظر دعوة الإسلام، كيما يستوي المجتمع على سوقه تعاوناً وتضامناً وتكافلاً، انطلاقاً من عقيدة تحمل صاحبها على البذل ابتغاء مرضاة اللّه تعالى وطمعاً في مثوبته، لا رياء وسمعة، أو خوفاً من عصا السلطة التنفيذية.

وهم بعد هذا وقبله: يحسنون التعامل مع اللّه تعالى عبادة وخضوعاً لأمره، فيقيمون الصلاة على وجهها المشروع المرضي عند اللّه، ويؤتون الزكاة التي هي فريضة وحقٌ في المال لا اختيار للمكلَّف بشأنها؛ لأنها حق مستحقيها في المال. وفي ذلك ما فيه من الإسهام في استقرار المجتمع المسلم وقدرته على النهوض بأعباء الرسالة لا في دنيا المسلمين فحسب، ولكن في دنيا الإنسان أينما كان. ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴿٣٣﴾ ﴾[فصلت٣٣].

وهؤلاء البناة الذين نخصهم بالحديث: لا بد أن يكونوا متخلِّقين بأخلاق الإسلام، تنمو في نفوسهم مع نموِّ مسؤولياتهم على صعيد الفرد والجماعة، وقد ذكراللّه تعالى في الآية أن من البر الوفاء بالعهد والصبرَ في البأساء والضراء وحين البأس. ذلكم قوله تعالى بعد ذكر الإيمان، وإيتاء المال مستحقيه، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿ **وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ** ﴾.

إن تكامل البناء يقتضي أن يكون للخلق الإسلامي ـ وهو خلق يرتبط بالعقيدة وينأى عن النسبية التي يقول بها المنحرفون ـ إن تكامل البناء والفسح لمقومات البناء المحكم الشامل: يقتضي أن يكون للخلق الإسلامي سلطان في المجتمع، يضبط السلوك، ويحفظ التعامل من العبث والخيانة وإضاعة الحقوق، كما يضمن ـ على ساحة الثقة المتبادلة والود ـ القدرة على الاستمرار المشترك ومواصلة المسيرة الخيّرة في تحمل أعباء البناء، بذلاً وتضحية وجهاداً بالمال والنفس.

ومن عيون أخلاق الإسلام: الوفاء بالعهد والصبر، الوفاء بالعهد مع اللّه ومع الناس، كما في قوله تعالى في مطلع سورة المائدة: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ** ﴾ [١]. وهي من أواخر ما نزل من القرآن الكريم وفي سورة آل عمران: ﴿**بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ** ﴿٧٦﴾ ﴾[٧٦]. وفي سورة الرعد: ﴿**الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ** ﴿٢٠﴾ ﴾[٢٠].

وقد مر بنا في صفحات سبقت ما جاء في وصايا سورة الأنعام من قوله تبارك وتعالى: ﴿**وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا** ﴾ [١٥٢] ومواطن ذلك كثيرة في القرآن الكريم.

من أجل هذا بيَّن ﷺ وهو يربي الإنسان المسلم القادر على البناء.. بيَّن أن المنافق يكذب ويخون ويفجر ولا يفي بعهد، وتلكم من أسوأ عناصر الهدم في المجتمع، ذلكم قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان**» وفي رواية أخرى: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر**». أخرجه الشيخان وأحمد وغيرهم من رواية أبي هريرة رضي الله عنه أرأيتم إلى سمات البر عند المؤمن ونقيضها عند المنافق.

* * *

obeikandl.com

الوفاء بالعهد.. والبناء

«٤»

في ظل رحلة مع واحد من المعالم القرآنية، سعدنا بعطاء الكلمة الهادية من خلال آية البر في سورة البقرة التي نراها في قوله تعالى: ﴿ **لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** ﴿١٧٧﴾﴾ .

في هذه الرحلة المباركة وقفنا عند لمحات مضيئة ـ وكل القرآن ضياء ونور ـ من قوله تعالى في صفة أهل البر: ﴿**وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا**﴾.

وأود أن أشير هنا إلى أن إفراد الوفاء بالذكر ومن بعده الصبر، في قوله تعالى عطفاً على ما سبق من أركان الإيمان والإسلام وما هو منهما بسبيل: ﴿ **وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ**﴾ هذا الإفراد يدل على أن من العهد بين اللّه والإنسان ما تقدم في الآية الكريمة من كل المقومات التي لا بد أن يبنى عليها المؤمن؛ كيما يكون قادراً على صياغة المجتمع، وتوفير المناخ الملائم لتكوين قدرته الذاتية في ظل قيم الإسلام. وأهل البر الذين هم المؤمنون الصادقون الموفون بعهدهم إذا عاهدوا.

وقد أشرنا فيما مضى من القول إلى بعض الآيات الكريمة المتعلقة بالوفاء بالعهد، الأمر الذي يعطي بلا ريب، أن الوفاء بالعهد هنا يتسم بالعموم، فهو وفاء المؤمن بعهد اللّه، ووفاؤه بعهد الناس والأمة.

obeikandl.com

ولعل قضية العهد والوفاء به وأن ذلك من سمات المؤمن، تكون في الحسبان، بحيث تأخذ حجمها الحقيقي على صعيد التربية والإعداد في بناء إنسان المستقبل.

فكلمة التوحيد موثق بين اللّه وبين المسلم، والوفاء بهذا الموثق يقتضي أن يأخذ حقٌّ « لا إله إلااللّه » أبعاده العملية في دنيا العقيدة والتشريع والأخلاق، وذلك ـ لا غيره ـ طريق البناء الذاتي للأمة ثقافة وعلماً وقوة تثبت وجودها في ميادين الصراع والتحدي.

وفي ظل الكلمة الطيبة كلمة التوحيد، لا بد أن يبنى الجيلُ على أن للأمة في أعناق أبنائها وبناتها عهداً ليس من الإيمان ولا من الأخلاق أن يُخلفوه، والوفاء به دليل صدق الانتماء إلى خير أمة أخرجت للناس.

إن قول اللّه تعالى في تحديد السمات الأساسية لأهل البر:﴿**وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا**﴾ ينبغي أن يكون حافزاً من أكرم الحوافز وأعمقها، يرتفع بالإنسان المسلم ـ أياً كان موقعه والثغر الذي أقامه اللّه عليه ـ إلى المستوى اللائق بأمة تنشد النهوض من عثار، وتعمل على قطع المسافة بين الواقع وبين ما يجب أن يكون في أقصر مدة ممكنة وهي على هداية ونور؛ لأن دولاب الزمن يدور، والشمس في شروقها وغروبها لا تنتظر متخاذلاً، ولا تتوقف من أجل الخاملين.

وإذا كان الوفاء بالعهد ـ جداً وجهاداً وتحملاً للمسؤوليات الكبار ـ من الخلائق المضيئة الفاعلة على طريق المؤمنين، فإن من خيانة الموثق، والنكث بالعهد، والعدول عن طريق أهل البر، أن يكون همُّ الفرد أياً كان موقعه تطوافاً حول نفسه، وتخلياً عن الإسهام في عملية البناء الذاتي للأمة، وأين ذلك من قوله تعالى:﴿**وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا**﴾ وسبحان الموفق للعمل والالتزام.

* * *

آية البر... والكلمة الطيبة

الصبر على تبعات البناء

«٥»

المؤمن وهو يقطع رحلة البناء في هذه الحياة تكون له النظرة المتكاملة التي لا تقيم الحواجز بين الإيمان والعمل، أو بين العبادة الفردية، والعبادة بكل ما من شأنه تقوية البنية الذاتية للمجتمع المسلم.

وهو بهذه النظرة يعلم حق العلم أن هذه التجزئة مرفوضة في منطق الإسلام الذي شاء اللّه أن يرتضيه لعباده ديناً، يكون لهم منهج حياة تتسع للفرد والجماعة، وللدنيا والآخرة. وشواهد ذلك من كتاب اللّه وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، والواقع العملي في قيادة ركب الحياة بهذا الدين تعزُّ على الحصر.

والعهد قريب بآية البر في سورة البقرة حجر الزاوية في هذا، حيث أشفينا على خاتمتها.

وفي أعناق المدعوين لتحقيق ذلك في كل الميادين: عهد مع اللّه عليهم أن يصدقوا به، وأمانة في أعناقهم من الواجب المؤكد أداؤها بموضوعية وشمول، أداءً لا يغادر شأناً من شؤون الحياة دقَّ أو جَلَّ.

وقد جعل اللّه من سمات أهل البر في سورة البقرة بجانب الإيمان والعمل، والإسهام بكل ما من شأنه إنشاء القوة الذاتية للأمة: أنهم من الأوفياء بالعهد فقال تعالى: ﴿وَأَقَامَ الصَّلاةَ وآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾.

إنه التكامل بين الإيمان والعمل والأخلاق، وليس ذلك بدعاً في دين أراد اللّه أن يكون للناس منهج حياة.

والأمر الرائع حقاً: ما نرى من واقعية المنهج الرباني في توجيه الإنسان؛ فما جاء في آية البر والوفاء بالعهد إيماناً وعملاً وسلامة تطبيق، لا يخلو من المصاعب، ولا يسلم طريقه من العقبات؛ فقد يبتلى المسلم بالفقر، وقد يبتلى بالمرض أو بهما جميعاً، ناهيك عما يمكن أن يناله من الأذى ـ وهو يغذُّ السير على طريق الحق ـ وما يقتضيه الجهاد من بذل للأنفس والأموال.

من أجل هذا ـ والله أعلم ـ جاءت الآية على هذين الخلقين العظيمين معاً وهما: الوفاء بالعهد والصبر، فقال تعالى: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾.

وتبعات الوفاء بالعهد ـ على الشمول الذي أسلفنا القول فيه ـ لا بد لها من الصبر. والصبر المذكور في الآية: صبر في البأساء، وهي حال الفقر، وصبر في الضراء وهي حال المرض والأسقام، وصبر في حال القتال على ساحة الصراع مع أعداء الله، وهو الصبر الكائن حين البأس.

فلا الفقر ولا المرض ولا سهام الموت الصائبة في ميدان القتال بصارفة عن متابعة السير في مرضاة الله تعالى﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ بل على العكس. يجد المؤمن في الابتلاء باباً عريضاً من أبواب الفضل الإلهي والفوز بما أعدالله للصابرين ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة:١٥٥-٥٧] أما عن الصبر حين البأس فاعتقاد المؤمنين أن أنفسهم وأموالهم مباعة لله ولهم الجنة: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة:١١١].

* * *

البر... والكلمة الطيبة

الصبر على تبعات البناء

«٦»

في كلمات سلفت هدانا المعلم القرآني إلى مكانة الصبر في البأساء والضراء وحين البأس، وأن ذلك من مقومات الوجود الذاتي للإنسان والمجتمع في المنهج الرباني.

وألمحنا في عجلة من القول إلى أن الصبر في البأساء والضراء: باب مبارك يلج منه المؤمن إلى ساحة فضل اللّه وكريم عطائه وما أعد لعباده الصابرين﴿ **إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴿١٠﴾﴾ [الزمر:١٠].

كما ألمحنا إلى أن المؤمنين وهم يجاهدون في سبيل اللّه ويصبرون حين البأس: يتحركون في ميادين القتال وهم يعتقدون أن نفوسهم وأموالهم مباعة للّه تبارك وتعالى، والثمن هو الجنة ﴿ **يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ**﴾.

وعليهم أن يذكروا أنه لا أحد أوفى بعهده من اللّه، لذا خاطبهم جل وعلا بقوله: ﴿ **فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾. بعد قوله: ﴿**وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ**﴾.

وما من ريب في أن هذه العقيدة هي التي حملت أولئك الميامين الأُوَل إلى ميادين القتال، وكانوا صابرين حين البأس محتسبين، واستطاعوا من وراء ذلك أن يحرروا الإنسانية من أغلالها، وأن يرسموا لها طريق النجاة، وأن يفسحوا لكل العاملين المؤمنين في بناء حضارة الإنسان ـ من حيث هو إنسان ـ ونقول: «**حضارة الإنسان**»

ونعني تلك الحضارة التي لم تهمل جانباً في الإنسان لحساب جانب آخر؛ كالذي نرى في حضارة اليوم حيث تأليه المادة ـ عند الآخرين ـ وانحسار الروح، والتعفية على الأخلاق، أو الحكم بنسبيتها، مما لا تخفى آثاره على ذي بصيرة.

وعلى هدي المعلم القرآني في آية البر، وقوله تعالى في خواتيمها: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ أؤكد ما قلته في مناسبات خلت أن الصبر في منهج القرآن: ليس صبر المتواكلين المتخاذلين، وإنما هو الصبر الذي يمثل الرضى بقدر اللّه، والقوة الدافعة إلى تحمل التبعات والاستهانة بالعقبات، لأن ما عند اللّه خير وأعظم أجراً، فالمؤمن يصبر على البلاء، ويصبر على تبعات التغيير إلى ما هو الأفضل، ولا يسأم من البذل على ساحة المسؤولية، ولو كان ذلك النفس والمال.

إن الصبر الخانع المستخذي ليس من الإيمان ولا من أهله في شيء، ولكن الصبر المراد: صبر أهل البر المجاهدين الصادقين الذين يجمعون إلى الإيمان الراسخ، عملاً صالحاً لا ينحسر عن ميدان من ميادين البناء، وهم موفون بعهدهم إذا عاهدوا، صابرون على مستلزمات الإيمان والعمل والوفاء بالعهد. أما الذين يفهمون الصبر على غير وجهه فعليهم أن يذكروا وهم يرون واقع المسلمين مع أعدائهم قول الشاعر:

ولا يقيم على ضيم يراد به ... إلا الأذلان: عَير الحيّ والوتدُ
هذا على الخسف مربوط بُرمته ... وذا يشجُّ فلا يرثي له أحدُ

إن طريق التحويل إلى حيث الفجر بعد الظلام، والتحرر من العبودية إلا للّه عز وجل: طريق يرتادها البررة المجاهدون الذين عناهم اللّه تعالى بقوله: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾.

واللّه ولي التوفيق.

* * *

البر... والكلمة الطيبة

الصدق.. والبناء

«٧»

بعد قوله تعالى:﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ ختمت آية البر بقوله جل وعلا: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾.

الذين صدقوا والذين هم المتقون: هم أولئك الذين ذكرت آية البر من إيمانهم وعملهم وخلائقهم ما ذكرت. وأجد لزاماً أن أعود إلى الآية الكريمة كيما يكون ذلك عوناً لنا في الكشف عن وجه الارتباط بين ما ختمت به الآية، وما بدئت به. يقول الله تبارك وتعالى:

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴿١٧٧﴾﴾ .

لقد أوضحت الآية بما لا يقبل الشك أن الصادقين المتقين هم أولئك الذين زانتهم صفات أهل البر التي أشرقت معالمها في هذه الآية الكريمة؛ بدءاً من الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، ومروراً بإتيانهم المال ـ على حبه ـ أصحابه المستحقين إسهاماً في بناء المجتمع على التكافل والتعاون في ظل أخوة الإسلام، وانتهاءً بوصفهم بأنهم الموفون بعهدهم إذا عاهدوا، وأنهم الصابرون في البأساء والضراء وحين البأس.

obeikandl.com

ولقد تكررت كلمة أولئك: تكريماً لهؤلاء البررة البناة، وبيان ما لهم من خصائص الخير﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**(١٧٧)﴾ .

أرأيت إلى هذا الإطار النوراني الذي أسعدنا به المعلم القرآني من خلال آية البر، حيث التحديد بأن البر ليس تولية الوجوه قِبَل المشرق والمغرب بعيداً عن امتثال أمر اللّه، ولكنه الإيمان والعمل، وسلطان الأخلاق على السلوك؛ وذلكم هو التكامل في مقوّمات البناء، البناء الذي لا يفارق فيه الإيمان العمل، ولا تجفو مسيرة السلوك الأخلاق.

وإذا أردت الصادقين: فتلك خصالهم، وإذا أردت المتقين فتلك سماتهم﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**(١٧٧)﴾ .

إن الناقد البصير الذي يرى ما يكتنف طريق التغيير إلى ما هو الأقوم من أهوال ومصاعب، لا يلبث أن يداخله ـ مع التصور لمشقات التغيير ـ نوع من الطمأنينة إلى المستقبل، لما أن جنبات المسالك واضحة، والمنهج الرباني في كتاب اللّه وسنة نبيه عليه الصلاة و السلام، لم يدع المسلمين في حيرة من أمرهم، وما عليهم إلا أن يعوا بحق دلالة مواقفهم مع اللّه وأن يبنى الجيل المسلم على عزيمة الالتزام، والوفاء بالعهد، والصبر، على مستلزمات الإيمان والعمل والصبر؛ وذلك طريق الصادقين المتقين﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**(١٧٧)﴾ .

* * *

البر.. والكلمة الطيبة
البناء.. وذاتية التصور والتفكير
«٨»

الخطوات المتواضعة التي كانت لنا مع سورة البقرة في الآية السابعة والسبعين بعد المئة منها وهي الآية المبدوءة بقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ والمختتمة بقوله جل وعلا: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ .

هذه الخطوات: ينبغي لها أن تشدنا على صعيد العقيدة والبناء الثقافي والاجتماعي إلى ما كنا ألمحنا إليه من أن الناظم الذي ينتظم هذه الآية ـ وهي سورة مدنية ـ وبما جاء في سورة إبراهيم ـ وهي سورة مكية: من المثل الذي ضربه الله تعالى للكلمة الطيبة كلمة التوحيد حيث قال تعالى خطاباً لنبينا محمد عليه الصلاة والسلام أو لكل من يعقل الخطاب: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾[٢٤-٢٥] .

فالآيتان المكيتان في سورة إبراهيم: توضحان البُعد العظيم لكلمة التوحيد «**لا إله إلاالله محمد رسول الله**» وأن هذه الكلمة نبع سلسبيل مبارك من العطاء لا ينتهي؛ والعقيدة الصحيحة هي الأساس المكين الذي يقوم عليه البناء التشريعي والأخلاقي والثقافي، وهي التي لا يَسلَم للأمة ـ إلا بها ـ توازن الأمور على صعيد البنية القوية المتكاملة، وتنمية الطاقات التي تكون وقود الكيان المتميز للمجتمع الأمثل والوجود الذاتي للأمة المسلمة.

ويشاء اللّه جلت حكمته أن تُلقى على طريق المجتمع المسلم في المدينة صورة من صور التطبيق لهذه الحقيقة في أبعاد كلمة التوحيد، فتكون شِرعة تحويل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام، وتتنزل الآيات ومنها آية البر في سورة البقرة التي تجعل المسلمين على بينة من أمرهم وهم يبنون مجتمع العقيدة..

على بينة من أمرهم في حقيقة العبادة، وأن الأساس الذي تقوم عليه هو امتثال أمر اللّه عز وجل.

أجل: وعلى بينة من أمرهم في تعريف البر، وهو أرومة الإيمان والخير، ومن هم أهل البر الصادقون المتقون، وعلى بينة من أمرهم في وجوب أن تكون لهم طريقة التفكير الذاتية المتميزة، فلا يميلون مع الريح حيث تميل، ولا يتزحزحون عن مواقفهم لكلمات أطلقها يهودي أو متهود ديدنه الحقد والدسُّ وقلب الحقائق.

فهم يتلقون عن اللّه وعن رسول اللّه المبيِّن عن اللّه ما أراد، وعملية البناء التي يحملون عبء إنجازها: قوامها إيمان، ثم عمل يتعدى حدود الفرد إلى الجماعة وتمتين صروحها.

وأين من هذا: التلفت والتبعيَّة في الفكر والتصور.

إنه الخط النوراني الذي نشعر من خلاله بالصلة بين ما جاء في سورة مكية هي سورة إبراهيم وبين ما جاء في سورة مدنية هي سورة البقرة: دليل المنهج الرباني المتكامل ترسمه القدرة الإلهية بآيات قرآنية تتنزل خلال ثلاثة وعشرين عاماً على النبي الأمي محمد بن عبد اللّه صلوات اللّه وسلامه عليه.

ألا وإن الواقع في دنيا المسلمين وفي العالم كله يطرح اليوم من الحقائق ما يزيد المؤمن يقيناً بأن من الأسلحة الماضية في تصحيح المسار، والعودة إلى حيث تكون أمتنا صانعة القرار، التنهيج لأن يأخذ التدبر للقرآن موقعه الطبيعي في حياة الفرد

والجماعة في ذُكر دائم لقوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنعام: ٩٢].

وقوله سبحانه: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩].

* * *

obeikandl.com

obeikandl.com

البر... والكلمة الطيبة

من البيان النبوي.. في البناء

«٩»

ما وقفنا عليه المعلم القرآني في سورتي إبراهيم والبقرة. من العلاقة المحكمة بين مكي القرآني ومدنيِّهِ حيث التكامل بين العقيدة وعظيم أبعادها وسلطان فاعليتها في بناء الإنسان والمجتمع.. وبين تطبيق ذلك على صعيد الواقع والوجود الحقيقي... ما وقفنا عليه المعلم القرآني في هذا الإطار.. يحملنا على أن نعود لنذكِّر مرة أخرى بما لا يخفى على ذي بصيرة من عمق البيان النبوي لكتاب الله عز وجل، وكيف أن هذا البيان يطرح بأمانة وإشراق الصيغ العملية التي تتحرك في دنيا الناس وتقود بالإنسان عملية تغيير الواقع والانتقال بالإنسان والمجتمع إلى ما يجب أن تكون، كما ثبت في الحديث الصحيح من ضربه ﷺ المثل للمؤمن بتلك الشجرة الطيبة وهي النخلة، فكان ذلك إفهاماً لكل الذين تندبهم الأقدار ليحملوا عبء رحلة البناء في دنيا الإنسان ما به يستعينون على الإبلاغ ودخول البيوت من أبوابها في خطاب الإنسان.. وبياناً للعاملين على كل صعيد: أن الحركة الفاعلة في ظل العقيدة تنمو بنمو الإيمان وتزداد بزيادته، نفعاً لعباد الله، وتمكيناً للأمة في الأرض.

ويتضح الأمر أكثر وأكثر إذا ذكرنا أن الشجرة الطيبة هذه وهي التي أصلها ثابت وفرعها في السماء والتي تؤتي أكلَها كلَّ حين بإذن ربها ـ كما جاء في سورة إبراهيم ـ ضربها الله سبحانه مثلاً لعقيدة التوحيد «**لا إله إلا الله**» .. تقريباً للأذهان وتيسيراً للفهم من طريق ضرب المثل.

وإذن: فالبيان النبوي ينتقل بالأمة إلى الصورة الناطقة العملية.. إلى صورة الوجود الذاتي للأبعاد التي هي من ضياء عقيدة التوحيد..

أجل ينتقل إلى الإنسان المؤتمن على أن تؤتي هذه العقيدة خيرها العميم، ونفعها الذي يُسعد من يهتدي بهداها في الدنيا وفي الآخرة يوم يقوم الناس لرب العالمين.

وإنها للدَّعوة إلى ترجمة الإيمان إلى عمل، وصياغة الفرد والمجتمع على هدي العقيدة الربانية، في شمول وسلامة في المنطلَق وصدق في الوجهة يُشعر بها قوله تعالى: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم:٥٢] وتشبيه رسول اللّه تلك الشجرة الطيبة بالمؤمن.

هذه واحدة: وأما الثانية، فهي أن رسول اللّه ﷺ عندما طلع على الأمة بهذا البيان، وأشعر المؤمنين بأنه المسؤول الحقيقي عن رسالة البناء المرتبطة بعقيدة التوحيد.. لم يكن يطرح الأفكار على طريقة الفيلسوف يصوغ النظرية بصرف النظر عن ارتباطها بالواقع والقدرة على تغييره إلى ما هو الأقوم والأفضل، ولكنه عليه الصلاة والسلام ـ وهو لا ينطق عن الهوى ـ كان يؤدي أمانة البيان لمعالم الكتاب الكريم وهو يمارس عملية بناء الإنسان والمجتمع ، ومن وراء ذلك بناء الأمة والدولة، ويعيد للإنسانية مسالك الحضارة التي تشاد على العقيدة وتأخذ بأطراف العلم وتحكمها الأخلاق..

وهكذا يكون البيان الذي صحبناه مع مجموعة من الآيات في سورتي إبراهيم والبقرة، بياناً متصلاً بعملية التغيير أوثق اتصال، محكماً في ربط مهام الرسالة بأبنائها أيَّما إحكام ، وأن المؤمن عنوان عمل وحركة على كل صعيد بما يسعد في الدنيا ويوم الدين.

والحمد للّه الذي أكرم خير أمة أخرجت للناس بكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقلد رسوله محمداً أمانة بيانه بالقول والفعل والإقرار من خلال الدعوة وممارسة بناء الحياة.

البـر... والكلمـة الطيبـة
الكلمة الخبيثة.. والبناء

إذا كانت عقيدة التوحيد في تواؤمها مع الفطرة وإنسانية الإنسان، وكونها منبع الخير والعطاء وسعادة الدنيا والآخرة، قد ضرب الله لها مثلاً شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها؛ فإن كلمة الإلحاد الكافرة بما تقوم عليه من تنافر مع الفطرة، وعدوان على إنسانية الإنسان، وجحود للخالق العظيم مع وضوح الآيات الدالة على وجوده وقدرته جل وعلا. إن هذه الكلمة الخبيثة ضرب الله لها مثلاً شجرة خبيثة مبتورة عن الأرض لا تغتذي، ولا تقدر على العطاء، ذلكم قوله تعالى في الآية السادسة والعشرين من سورة إبراهيم: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ﴾.

والكلمة الخبيثة اليوم عنوان على ضلالات تبدأ من الاعتقاد وتشمل ـ فيما تشمل ـ الإصرار على صياغة الفرد والمجتمع وفق هذا الضلال والعياذ بالله.

والمسلمون اليوم ـ وقد قرّب العلم بين المسافات، ويسَّر وصول الكلمة طيبة كانت أو خبيثة ـ مدعوون إلى أن يتبصروا أمورهم من خلال هذه المقابلة في القرآن الكريم، حيث نرى هنا صورة من صورها.

فأي الطريقين يسلكون؟ ليس المخوف ـ دائماً ـ أن يتخلى المسلم عن كلمة التوحيد ينطق بها لسانه، ويتبدّل بها كلمة خبيثة تحمل الوثنية والكفر.. ولكن المخوف هو الوقوع في الأفكار والنظم التي تنبثق عن تلك الكلمة الخبيثة التي ضرب الله لها المثل لمزيد من البيان والإيضاح بشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار.

إنها شجرة خبيثة لا تتفق مع الفطرة بل تجفوها وتحاربها، ولا تضمن إنسانية الإنسان، بل تقف الموقف العكسي المضاد، عدا عن أنها قبل ذلك كله تجاهر خالق السماوات والأرض وفاطر الإنسان بالعداوة والجحود.

وإذا كانت هذه الأسطر المعدودات لا تتسع للتفصيل، فحسبي أن أشير هنا إلى أن مقابلة الطيبة بالخبيثة في هذه الآيات من سورة مكية هي سورة إبراهيم: لمحة من لمحات الإعجاز في هذا الكتاب الكريم. فكم يطرح على طريق المسلم اليوم من أفكار على صعيد الثقافة والاجتماع والاقتصاد هي السم الناقع بلا ريب في ميزان المثقفين المنصفين، وكم يزيِّن للأمة الباطل ويلبس لبوس الحق.. والمعتصَم من ذلك: استمساك بالكلمة الطيبة: عقيدة وشريعة وسلوكاً كما أراد ربنا تبارك وتعالى وكما رضيها لنا ديناً وأسعدنا بها منهج حياة. فأي عاقل يترك الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، ويتجه إلى شجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار؟!!

ألا إن الأمر جدٌّ لا هزلَ فيه، والامتحانات الصعبة التي تواجه الأمة اليوم جديرة أن توقظ الهمم وتحوّل الشراع إلى استمساك أكثرَ بكل عطاء الكلمة الطيبة في بناء الفرد والمجتمع، والخروج بالأمة من مآزق يذوب لها القلب وتتفطر لها الأكباد... واللّه لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

* * *

البر... والكلمة الطيبة
قيم وموازين .. على طريق البناء

اتسمت معالم القرآن على صعيد بناء الفرد والجماعة بالكثير من العمق والتحديد، سواء من ذلك ما كان على صعيد التصور وطريقة التفكير، وما كان على صعيد العمل والحركة في أي ميدان من الميادين.

فالذي ألمحنا إليه من قريب من أن الكلمة الخبيثة هي على النقيض من الكلمة الطيبة، فتلك كشجرة طيبة تغتذي وتعطي؛ لأن أصلها ثابت وفرعها في السماء. ولا يقتصر نفعها وخيرها على جانب دون آخر ولا ينحسر عن زمان ولا مكان ﴿**تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا**﴾ وهذا طبعاً في ميادين العقيدة وكل ما له صلة ببنية المجتمع في الثقافة والاجتماع والاقتصاد والسلوك.

أما الكلمة الخبيثة: فهي مبتورة عن العطاء لا خير فيها ولا نفع في ميزان اللّه عز وجل، وعدوانها على فطرة الإنسان وإنسانيته واضحة لكل ذي عينين، لما أنها شجرة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار.

غير أن الذي لا يمكن إنكاره: أن الكافر كثيراً ما يقوم بما فيه نفع في الدنيا، وهنا تأتي نقطة العمق والتحديد التي أشرنا إليها؛ فالعبرة ليست بالعمل نفع صاحبه فيه أو تعدى ذلك إلى الآخرين فحسب، ولكن العبرة بأن يقوم هذا العمل على العقيدة التي هي الكلمة الطيبة «**لا إله إلا الله محمد رسول الله**».

ولا بد أن يكون واضحاً عند المسلم من أول الطريق: أن تحديد القيم إنما يكون عن اللّه عز وجل وعن رسوله عليه الصلاة والسلام؛ ففي سورة الفرقان- وهي سورة مكية- يقول اللّه تعالى بدءاً من الآية الحادية والعشرين: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ**

لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ .

هذا التعنت الذي تعرض الآيات بعض صوره في طلب إنزال الملائكة وما يكون لأولئك الجاحدين المتعنتين يوم القيامة، كان يرافقه منهم في الدنيا ألوان من عمل الخير كالصدقة وصلة الرحم، وقِرى الضيف وإغاثة الملهوف، و اللّه تبارك وتعالى يثبت لهم ذلك، ولكنه يبين أن ذلك لا وزن له يوم القيامة، وقدمنا ـ أي وعمدنا ـ إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً.

لقد أثبت لهم العمل، غير أنه عملٌ قد فقد شرط قبوله والمجازاة عليه في الآخرة وهو العقيدة الصحيحة؛ لذا جعله هباء منثوراً، يستوي مع هذا الهباء الذي قد يلمح من الكوة التي عليها الشمس. أما جزاؤهم في الدنيا فحاصل، إذ إن كل امرئ يذكر بعمله، وقد يكون الجزاء أموراً مادية أو معنوية إلى غير ما هنالك.

إن أمتنا وهي تشق طريقها لاستئناف رحلة البناء الذاتي من جديد، مدعوة إلى تبيين المعالم والمقومات الحقيقية لمن تناط بهم تلك المرحلة التي تشعبت ميادينها ومسالكها، فلها أن تفيد من الإمكانات والطاقات دون غفلة عن ارتباط العمل بالعقيدة... واللّه ولي التوفيق.

* * *

من صور البناء الحضاري في البيان النبوي

«١»

لقد كان فضل اللّه عظيماً على الأمة المحمدية بالقرآن، وكان فضله عظيماً ـ مرة أخرى ـ وهو ذو الفضل العظيم ـ حين ائتمن نبيه محمداً ﷺ على بيان هذا القرآن: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾[النحل:٤٤] .

من هنا كان التناسق واضحاً كل الوضوح بين عموم رسالة القرآن وهدايته التي تناولت ـ فيما تناولت ـ جوانب النفس الإنسانية كافة، والحياة بشتى ميادينها وأبعادها، وعلاقة الإنسان بالكون والحياة.. وبين بيان الرسول عليه الصلاة والسلام بأقواله وأفعاله وإقراره وسلوكه وأخلاقه والتربية بالأسوة، وكل ما هو من ذلك بسبب.

فلقد تجمَّعت له ـ بعناية اللّه وحكمته ـ كل عوامل البيان للمنهج الرباني؛ فلم يتقاصر عن أيِّ أمر من أمور التمكين للمؤمنين في الأرض بعد فقههم للرسالة وأبعادها وبناء القدرة الذاتية عند الفرد والجماعة في المجتمع، والدلالة على كل ما يقهر عوامل الضعف أمام التحديات ـ وما أكثرها ـ ويسعد في العاجلة والآجلة؛ حتى كانت سيرته ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ ترجماناً عملياً لرسالة السماء التي تنزَّل بها جبريل عليه السلام، وأسوة حسنة يعشو إلى ضوئها من تحوطهم عناية اللّه، فيتابعون على هديه نشر الدعوة ومسيرة البناء الحضاري المكين.

أقول هذا وأنا بسبيل خطوة أخرى نسعد معها بالرحلة العجلى مع قوله تعالى في سورة محمد ﷺ ـ سورة القتال ـ: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [٢٢- ٢٣].

obeikandi.com

فلقد كان من هديه ـ ﷺ ـ وهو يستنقذ الإنسان من وهدة الجاهلية ويبنيه من جديد على الإسلام، ويجمع شتات المجتمع ليحكم بناءه على هذا السنن من لبناته الأولى وخلاياه المتقدمة.. كان من هديه ـ جزاه اللّه عن الأمة خير الجزاء ـ أن أكَّد وجوب صلة الرحم بعد بيان موقعها العظيم، وأن من وصلها وصله اللّه، ومن قطعها قطعه اللّه، واستشهد لذلك بهاتين الآيتين الكريمتين سالفتي الذكر.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**إن اللّه خلق الخلق، حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة؟ قال: نعم، أما ترضين أن أصِلَ من وصَلك وأقطعَ من قطعَك؟ قالت: بلى. قال: فذلك لك**». ثم قال رسول اللّه ﷺ: «اقرؤوا إن شئتم: ﴿ **فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾** ﴾ .

وجاء في رواية للبخاري: «**من وصلك وصلته ومن قطعك قطعته**».

ألا إن رسول اللّه ـ وهو المبلغ عن اللّه ما أراد والمؤتمن على تعليم الكتاب والحكمة والتزكية ـ يعلِّم جنده المؤتمنين على حمل عبء البناء في ضوء الرسالة الخاتمة، وتحقيق الوجود الذاتي للمجتمع الأمثل في المدينة ليكون القدوة في إحكام البناء.. يعلِّمهم أن الخطوة الثابتة في بنية المجتمع المسلم القوي الذي يسعد بسلطان العقيدة، ويتسم بالتراحم والود، بعيداً عن عناصر الهدم والفساد: تبدأ من إحكام الحلقة الأولى، لا على أساس مادي من تبادل المنافع وانقضى الأمر، ولكن على أساس من الصلة النابعة من القلب المشرق بالإيمان، ابتغاء مرضاة اللّه تعالى، والتي تثمر ـ فيما تثمر من الخير ـ تمتين الأواصر على ساحة ذوي القربى أولاً، وتماسك المجتمع ثانياً، ناهيك عما يغمر الجماعة والمجتمع من السعادة بتحقيق إنسانية الإنسان بعيداً عن الحقد والكراهية وتصيُّد العثرات.

إنه ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ يعلمهم ويزكيهم دالاً إياهم بقوله وسلوكه على ما يريد، مستشهداً بالكلمات الهاديات التي خوطب بها الكفار، والتي تحمل من الإعظام لشأن الرحم بالتنبيه على فقه قوله تعالى:﴿ **فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ**﴾ إلى قوله:﴿**وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ** ﴾.

واتضح بهذا البيان الحكيم منه عليه الصلاة والسلام أنه يريد من المسلمين أن يعلموا حق العلم أن أولئك الذين يفسدون في الأرض ويقطعون أرحامهم ملعونون، آذانهم صمٌّ عن الحق، وأبصارهم عميٌ عن الهدى ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ** ﴿٢٣﴾﴾ .

ألا ليت للذين يشهدون شقاء المجتمعات البعيدة عن هدى اللّه وشقوتها قلوباً تعي، وعقولاً لها إلى النَّصَفة نسب: كيما يثوبوا إلى الرشد بعد عناد، شاهدين على أن الإسلام هو المثابة التي يجب أن تستأنف البشرية طريقها إلى هديه، كيما تحقق للإنسان سعادة الدنيا بأقوم وجوهها، والنجاة يوم يقوم الناس لرب العالمين.

ثم أليس عند الكثيرين من أدعياء الثقافة والتنوُّر من الأمثلة الواقعية في مجتمعاتنا هنا وهناك، فضلاً عن مجتمعات الآخرين، ما يؤكد هذه الحقيقة، ويزيد يقين الموقنين بأن القرآن ـ وهو منبع الهداية الأول ـ كلام اللّه وأن محمداً ﷺ المؤتمن على إبلاغه وبيانه عبداللّه ورسوله؟ الأمر الذي يدعو إلى مزيد من الثقة، والمسارعة الواعية إلى اعتناق الحق، وتجاوز العقبات التي يضعها المفسدون، في الأرض أعداء الحق والإنسان، وهي العقبات التي تحول دون الوصول إليه، وترجمة المنهج الرباني إلى واقع في حياة الفرد والمجتمع والأمة، بل على صعيد البشرية جمعاء؟

* * *

obeikandl.com

من صور البناء... في البيان النبوي

«٢»

إن ما دل عليه المعلم القرآني في سورتي النساء ومحمد ﷺ كان منه الهدي النبوي بحسبان، بياناً للقرآن وإعداداً لإنسان الدعوة الذي قُلِّد أمانة البناء بكل مضامينه الثقافية والاجتماعية والاقتصادية.

ولقد رأينا لمحة من لمحات بيانه صلوات اللّه وسلامه عليه في ظل قوله تعالى: ﴿**فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾**﴾.

ولعل من الخير أن نذكر أنه ﷺ لم يكن يقيم البناء الاجتماعي ويؤكد وجوب صلة الأرحام التي تنعكس على المجتمع في تماسكه وتضامنه وسعيه الحثيث ـ كالجسد الواحد ـ إلى تحقيق الرسالة بصورتها العملية في الاعتقاد والتشريع والسلوك..

لعل من الخير أن نذكر أنه لم يكن يفعل ذلك، وهو بمنأىً عما كان عليه أهل الجاهلية، ومدى ارتباط ما كان من التفسخ الناتج عن ذلك الاضطراب في علاقات ذوي الأرحام بعضهم ببعض وما كان من الضغائن وإضاعة الحقوق وهدر القيم.

ودع عنك نخوة الجاهلية: فتلك قضية ليس لها نظام محكم أو قاعدة منضبطة؛ فهي يوماً تشرِّق، ويوماً تغرِّب، حسب ميل الهوى والطارىء من الأحداث.

وهذا الذي نشير إليه أسهم في تكامل عملية البناء التي كان يزاولها رسول اللّه ﷺ؛ فهو على ذكر مما كان عليه واقع المجتمع الجاهلي بمقدماته ونتائجه، وعلى تنبهٍ لكل شاردة وواردة يمكن أن تعرض له وهو يعمل على تنمية إمكانات أصحابه، ليكونوا الأكفياء الأمناء عند وضع ما ائتمنوا عليه من أحكام الإسلام موضع التنفيذ في الفرد والأسرة والمجتمع.

ونِعمًّا تصنع العقيدة حين تكون هي الموجهة للسلوك.. نِعمّا تصنع بما ترتفع بالمؤمن فوق المعوقات، وتجعله أقدر على التحكُّم بالرغبات، والعمل على اقتلاع رواسب جاهلية الأمس، والتطلع الصادق إلى ما عند اللّه ، مثل التلفت إلى زخرف الدُّنيا من هنا وهناك.

وإذا كان أمر العقيدة كذلك: فلا بدع أن يذكِّر رسول اللّه ﷺ بمجموعة من الفضائل والمكرمات ومنها صلة الرحم التي تمسُّ العلاقات على صعيد اللبنات الأولى في المجتمع مساً مباشراً، ويحكم الرباط بينها وبين الإيمان باللّه واليوم الآخر؛ ذلكم ما أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللّه ﷺ : «**من كان يؤمن باللّه واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن باللّه واليوم الآخر فليصل رحمه، ومن كان يؤمن باللّه واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت**».

أرأيتم هذا الصنيع التربوي بالكشف عن هذا الارتباط بين الشرط وهو الإيمان باللّه واليوم الآخر، وبين جوابه من تحقق هذه المكرمات؟! فمن كان يؤمن باللّه واليوم الآخر فليكرم ضيفه، فليصل رحمه، فليقل خيراً أو ليصمت.

صلى اللّه وسلم على معلم الناس الخير رسول اللّه؛ كثيراً ما نغفل عن الهدي النبوي وهو بيان الكتاب الكريم، وتغيب عنا في حميا العجيج والضجيج بعض القضايا المهمة التي ينبغي أن تكون لها الأولوية في تصرفاتنا؛ فأنت ترى هنا أن صلة الرحم اقترنت بإكرام الضيف، والصمت إلا عن خير؛ وكل أولئك مرتبط بالإيمان باللّه واليوم الآخر، وموقعهما في أركان الإيمان لا يخفى!! أوليست هذه كلها من العناصر التي تسهم بقوة في تماسك المجتمع الحضاري القدوة؟ صلة الرحم تقوي اللبنات الأولى، وإكرام الضيف يمتِّن أواصر الود والتصافي، ويعطي الأخوة مزيداً من القوة والنماء.

ثم أليس الحفاظ على الود، ودرء الفتنة والشقاق، والبعد عن كلمة الحسد والغيبة والنميمة من كل ما يسبب الشحناء والبغضاء ويفرق الشمل أن يقول المرء خيراً أو ليصمت؟!

لقد سلك رسول ﷺ ـ وهو يعلم ويزكي بنور النبوة ـ سبيل البناء الاجتماعي المكين عندما ربط الفضائل بالإيمان، وهو درس أعظِم به من درس على صعيد التخطيط التربوي والتنفيذ؛ لذا كان من المهم اليوم أن تستأنف الأمة طريقها بعد هذا الضياع ، وتوليَ وجهها شطر الهداية الربانية على الوجه الذي ينبغي من جديد مع عدم الغفلة عن الواقع ومعطياته، ووجوب التساوق في الحركة مع سنن اللّه الكونية، كيلا نقع في شيء من الغفلة عن استنفاد الأخذ بالأسباب على الوجه الذي ينبغي.

* * *

obeikandl.com